AL-MAJALLA AL-JOUGHRAPHIA

GEOGRAPHICAL MAGAZINE

The Syrian Geographical Society

Damascus - Syria

July 1998

Contents

The importance of water as a basic vital need for human beings..... S. Mahli

Underground and surface water resources in Batna State.....S. Nwari

Study in the strategic water planning..... B. clobb

Water in the ecological education programmes in Qatar..... S.A. Alhajari

Tourism in Palmyra and the possibility of developing .... S. Wahbi

Maloula from an agricultural village to a touristic site..... A. Escher

The biological diversity in Saqtra island..... S. Baankoud

The Algerian experiment in the regional preparation.....A. Bolohwash

Urbanization in Mauritania.. ..... H. Abd alkader

The economical reforms in China..... I. A. Said

The geographical studies in Iraq.....Y. Yahia

An outlook at the solar and lunar calendar..... B. Mouhamad

مركز الشام للخدمات الطباعية ١٩٩٨

معلولا - من قرية زراعية إلى مركز اصطياف

البروفسور د. أنطون ايشير*

تقع قرية معلولا على مسافة ٥٠ كم من مدينة دمشق، في وسط جبال القلمون، تلك الجبال الالتوائية - الانكسارية المتجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي المحاذية تقريباً لجبل لبنان الشرقي، والتي تشكل وحدة طبيعية متميزة عن الوحدات الأخرى المحيطة بها. وتتميز بنحودها الثلاث وظهورها المتخذة للاتجاه نفسه التي تفصل فيما بينها درجتان انكساريتان تبرز عليها بشدة جدران صخرية حادة، تحتل قرية معلولا منها حيزاً على سفح شديد الانحدار على ارتفاع بين ١٤٠٠-١٦٠٠م عن سطح البحر.

تتمتع منطقة القلمون بسبب موقعها في ظل جبل لبنان الشرقي بمناخ جبلي قاري ذي صيف حار وجاف يبلغ متوسط الحرارة اليومية القصوى فيه ٣٢ درجة مئوية، وشتاء قاس ذي حرارة دنيا متوسطة يومية تبلغ ٥ درجات مئوية. تقل أمطارها وتتناقص نحو الشرق بالمقارنة مع أمطار جبل لبنان الشرقي المجاور لها في الغرب (حيث يبلغ متوسط الأمطار هناك زهاء ٣٠٠مم)، فتبلغ في وسط جبال القلمون ٢٠٠ مم فقط. وهذه الكمية التي لها صفة الهطول المفاجئ الغزير تؤدي إلى حدوث حت شديد وانجراف في التربة في الأراضي المنبسطة المكشوفة الفقيرة بغطائها النباتي. هذه الأمطار القليلة في كميتها المتذبذة في مواعيد هطولها تمنع ازدهار زراعة بعلية كافية في تلك الأراضي، فيبقى نشاط السكان الاقتصادي مقتصراً على زراعة مروية في مساحات محدودة في الواحات وفي الأماكن المنخفضة والأودية التي دخلتها في الحاضر مشروعات ري تعتمد على حفر الآبار العميقة. (انظر ايشير ١٩٩٣).

لقد تمكن ماء نبعين كبيرين إلى حفر "فج ومعبر" متميزين عبر أحد الجدران الصخرية العالية في ظهور القلمون فخلقت ظروف طبيعية مناسبة لنشوء تجمع بشري اسمه معلولا في اللغة الآرامية القديمة. وهو يعني "الفتحة" أو المعبر. وعلى الرغم من قسوة تلك الشروط الطبيعية العامة المحيطة بمعلولا، تعتبر القرية محظوظة بذلك الموضع الذي أدى إلى نشوء هذا المركز العمراني المستقر على مر الزمان منذ نشوئها في الألف الأول قبل الميلاد من اجتماع عدد من الملاجئ البدائية الأولى المحفورة في السفوح الكلسية البيضاء.

اتسع انتشار تلك البيوت المحفورة في الجدران

---

* يشغل الاستاذ ايشير منصب رئيس معهد الجغرافية في جامعة مانيز بألمانيا الاتحادية. وهو أحد تلامذة البروفسور فيرت صاحب أول كتاب جغرافي علمي مفصل عن سورية كان قد صدر في ألمانيا في السبعينات في إطار جامعة ارلنجن - نورنبرغ والمعهد الآثاري الألماني.

الصخرية في العصر البيزنطي وأحيط التجمع بسور متين يمكن ملاحظة بقاياه حتى الآن، على الرغم من التخريب الذي الحقته الطبيعة به. وبهذا المظهر الخارجي ظلت معلولا تبدي في جزئها القديم الوظيفة الدفاعية لها كمركز يلبي الحاجة الأمنية بسبب الموقع المرتفع الحصين المناسب للاعتصام والدفاع ضد الأعداء الطامعين الذين كانت تتكرر هجماتهم عليها.

يتحدث المسنون عن تحول معلولا في أوائل هذا القرن إلى قرية يسكنها فلاحون يعيشون حياة ريفية بسيطة جداً. يستيقظون في الصباح فيمتطون حيوان ركوبهم إلى حقولهم المجاورة ليعملوا بها طوال النهار ويعودون إلى منازلهم في المساء. بعد أداء عملهم اليومي المعتاد لكسب قوتهم المتواضع. ويتحدث المسنون أيضاً عن مجتمع متعاون كانت تجمع الناس فيه المودة وروح التعاون إذ كان الجميع أشبه ما يكون بأسرة واحدة متضامنة يساند الفرد فيه الآخر في العمل الزراعي. يجتمعون معاً لبذر البذور والحصاد وللاحتفال بالأفراح والأتراح والأعياد في جميع المناسبات.

كانوا يقطفون العنب وثمار التين في السفوح الجبلية القريبة ويزرعون القمح والذرة والخضار في الواحة المروية القريبة، ويربون المعز والخراف والدواجن لتأمين حاجاتهم الغذائية، كما كانوا يزرعون أشجار الحور لبناء بيوتهم في الأراضي البعلية و"السماق" كسلعة تباع إلى تجار مدن دمشق وحلب وبيروت. إذ ظلت معلولا حتى منتصف القرن العشرين تبادل سلعها الزراعية والحيوانية بالبضائع التي تحتاجها. وعن ذلك يتحدث المسنون عن عدم استعمال النقود في عمليات البيع والشراء فكان لوح الدراسة (أي الآلة المستخدمة تقليدياً لفصل الحبوب عن عيدانها) يشترى من قبل فلاح معلولا بـ عدل مملوء بالحنطة.

كانت معلولا قرية مسيحية بحق يعد سكانها قبل الثلاثينات الـ ١٥٠٠ نسمة (حسب تومان Toumin ١٩٣٦)، ثم أخذت أعداد من الوافدين من المسلمين تزداد بعد هذا التاريخ حتى وصل العدد الاجمالي إلى قرابة ٢٠٠٠ نسمة، منهم ٢/٣ يتبع الكنيسة الاغريقية الكاثوليكية و ١/٥ يتبع الكنيسة الاغريقية الارثوذكسية، كما وصل عدد المسلمين إلى ١/١٠ من عدد السكان (انظر للمقارنة رايش Reich ١٩٣٦). وتزايد مع ارتفاع عدد السكان البحث عن موارد أخرى اضافية للقرية غير تلك الموارد التقليدية الشحيحة، فخرج بعض سكانها الشباب للعمل في الحصاد بمحافظة حوران ومن الفتيات للعمل في بيوت دمشق، كما كانت العادة آنذاك بالنسبة للقرى المجاورة، بالاضافة إلى نسبة كبيرة كانت قد بدأت الهجرة إلى الخارج للبحث عن الرزق في البلاد البعيدة (منذ ستينات القرن الثامن عشر) ما وراء البحار وخاصة في العالم الجديد (بلغ عدد الذين قصدوا الولايات المتحدة من سكان معلولا في الثلاثينات ٢٥٠ نسمة).

وهناك ظاهرة يلاحظها البعض عن انخراط عدد كثير من عمالها للعمل كخبازين في مدينة دمشق والمدن الأخرى في بلاد الشام. فهذه المهنة كانت تعد بالنسبة لهم مهنة تقليدية أخذها الأولاد أباً عن جد (حسب باباغوريو Papageorgiou ١٩٩٤). وعن هذا يتحدث قسيس الأرثوذكس قائلاً: "يعد العمل في الخبز من الأعمال المعتادة لدى أهل معلولا. ومهنة الخبز عمل تقليدي للكبار والصغار سواء بسواء للذين يسكنون في

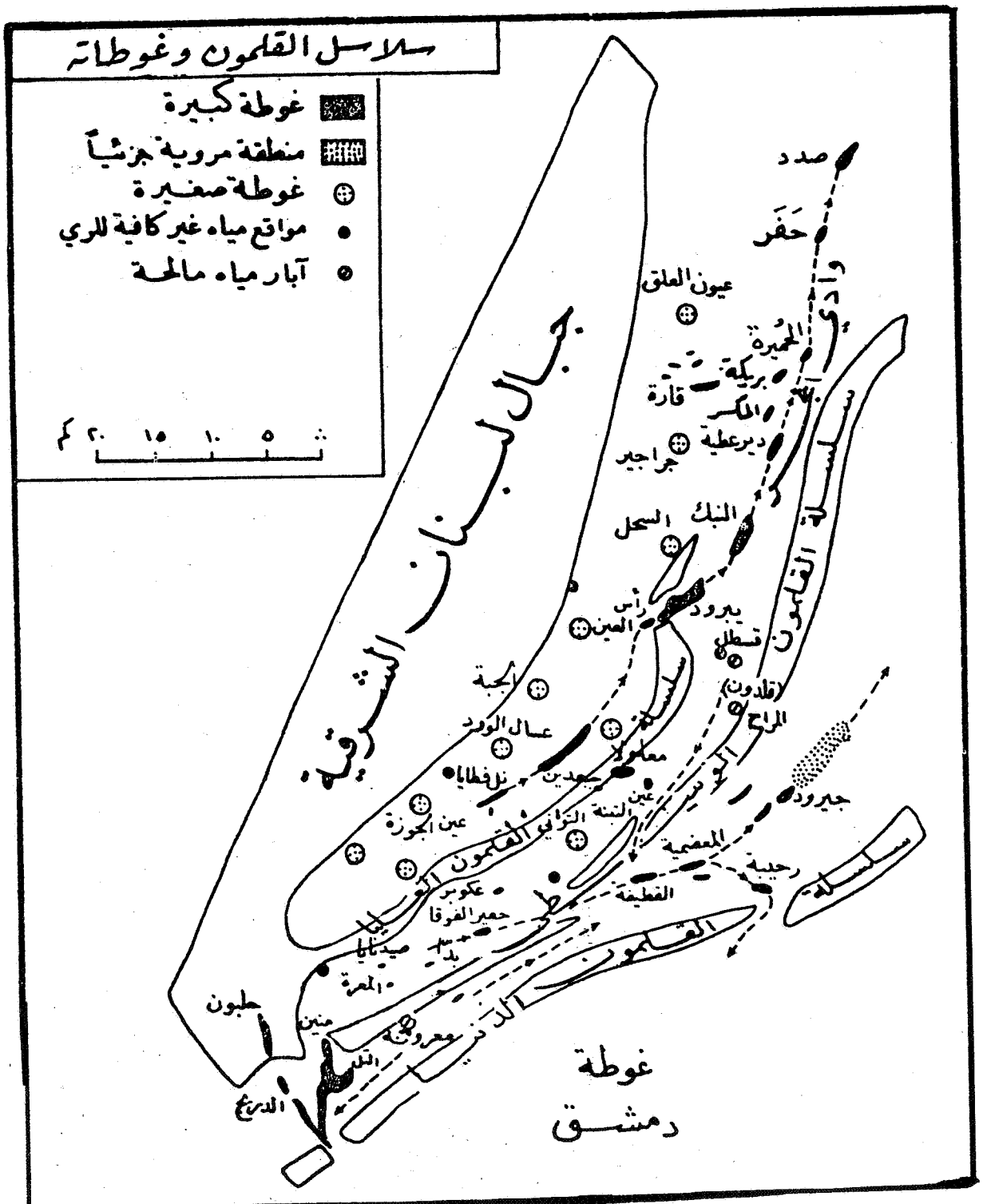
سلاسل القلمون وغوطاته
غوطة كبيرة
منطقة مروية جزئياً
غوطة صغيرة
مواقع مياه غير كافية للري
آبار مياه مالحة
٠ ٥ ١٠ ١٥ ٢٠ كم
جبال لبنان الشرقية
سلسلة القلمون الغربي
سلسلة القلمون الشرقي
صدد
حفر
عيون العلق
الحميرة
بريكة
قارة
المكس
ديرعطية
جراجير
النبك
السحل
يبرود
رأس العين
قطلبا
(قلدون)
المراح
الجبة
عسال الورد
معلولا
جبعدين
نل فطايا
عين الجوزة
عين التينة
التوأمين
جيرود
المعضمية
رحبة
القطيفة
عكوبر
جبر الفوقا
صيدنايا
بلدة
المعرة
طبون
معروفة
القلمون
الكرسي
غوطة
دمشق
الدريج

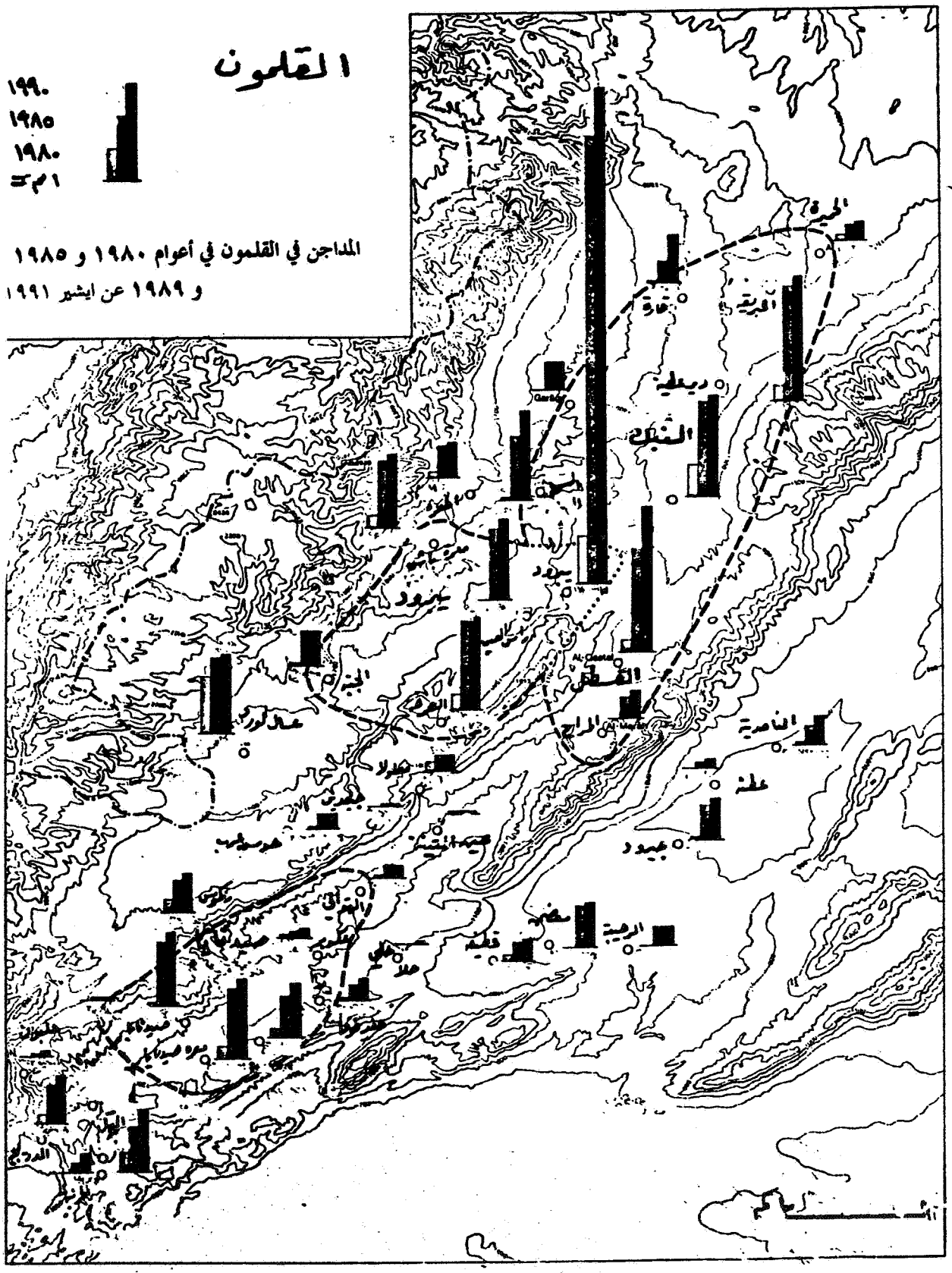
القلمون
١٩٩٠
١٩٨٥
١٩٨٠
١٩٧٥
المداجن في القلمون في أعوام ١٩٨٠ و ١٩٨٥
و ١٩٨٩ عن ايشير ١٩٩١
الحيزة
قارة
القريتين
رنكوس
الشنبك
يبرود
الجبة
عسال الورد
الفطر
الراس
الناصرية
عطنة
جيرود
الرحيبة
قطنة
حلا
جديدة
الدوير

معلولا أو في دمشق. ومن لا يقول أنه يعمل خبازاً فهو كاذب".

تعد ظاهرة الهجرة من معلولا من النشاطات الأسرية التقليدية. والمقاصد المعروفة للمهاجرين من معلولا هي لبنان والولايات المتحدة الأمريكية والسويد وفرنسا ودول الخليج ودول أخرى لأهل معلولا أقرباء فيها، مثل كولومبيا وألمانيا والأرجنتين والبرازيل والعربية السعودية وكندا و الأردن واستراليا واسبانيا وعدد كبير آخر من بلاد العالم الواسع.

تسكن معلولا الآن أكثر من ألف أسرة، أي يبلغ عدد السكان زهاء ٥٠٠٠ نسمة، يعيش الثلث منهم في معلولا طوال السنة ويعود الآخرون إلى القرية في الصيف فقط، إذ يرتفع العدد مع الضيوف والأقرباء إلى ٩٠٠٠ نسمة. ويمتلك زهاء ١/٥ السكان منازل اضافية لهم في مناطق أخرى من سورية وبصورة خاصة في دمشق ولبنان وفي بلاد عربية أخرى. ويعد ارتباط معيلي الأسر بدمشق كبيراً، إذ لا يعمل في القرية من المعيلين سوى ٢٣,٣٪ بينما تبلغ نسبة المعيلين العاملين في مدينة دمشق ٦٠٪ وفي لبنان ٧٪ ويعمل العدد الآخر في البلاد العربية.

يساعد في الانتقال إلى أماكن العمل القريبة يومياً من الصباح إلى المساء عدد كبير من سيارات النقل الصغيرة (ميكروباص) ينطلق الواحد خلف الآخر كل ٢٠ دقيقة. بالاضافة إلى السيارات الخاصة التي يمتلكها أبناء معلولا (تبلغ نسبة المالكين لها من سكان معلولا ١٥٪).

يشكل العاملون من الشباب حالياً ١٦٪ من عدد السكان العام. وهؤلاء يعملون في الوظائف الرسمية العامة. ومن الأمور الملفتة للنظر ارتفاع نسبة الخبازين بينهم إلى زهاء ٦,٣٪، وهؤلاء يشكلون من مجموع المعيلين ٨,١٪ ثم يليهم العاملين بالبناء ٥,٩٪. ويشكل الأطباء ٤,٤٪. ولا تبلغ نسبة الذين يعملون في الزراعة الآن سوى ٤,٥٪ في زراعة الكرمة وشجر التين في الحقول البعلية وفي الواحة المرواة، يزرعون أشجار المشمش والتفاح وفي المزارع الحديثة الثمار والخضار. ومن هذه النسب المذكورة للعمل يتبين أن معلولا لم تعد قرية للفلاحين.

تعود أولى الكتابات حول تطور القرية إلى الثلاثينات، إذ ذكر حمادة (١٩٣٦) ما يلي: "في منطقة القلمون في الشمال من دمشق، يقع عدد من القرى في مواقع مناسبة للاصطياف هي معلولا وبرود والنبك والتل ومنين ولكنها بسيطة وغير مجهزة للاصطياف ولا يؤمها سوى عدد قليل من الزوار". ومعلولا الآن أصبحت بالنسبة للسكان في الشرق الأدنى من المراكز المرغوبة في فصل الصيف القائظ. وهي فيه مقصد العمال العائدين إلى أسرهم من أماكن عملهم خارج معلولا. ومعلولا تظهر وجهين اثنين واضحين في الحاضر، فبينما لا ترى في الشتاء أحداً تقريباً في طرقاتها ترى الطرق مزدحمة بالسكان في أمسيات فصل الصيف إذ غدت واحدة من عدد من مصايف الجبال الغربية الرئيسية في الجمهورية العربية السورية. واليها يعود في أشهر أيار حتى ايلول أهاليها قادمين من دمشق وبيروت ومن بلاد المهجر، كما يأتي سياح أجانب لزيارة معلولا القرية الآرامية الساحرة كما يجتمع في العش الصغير القابع في آخر الدنيا عدد كبير جداً من الزوار الآتين من جميع أنحاء العالم يفوق عددهم العشرة آلاف لمشاهدة الاحتفال بـ "عيد الصليب" في منتصف شهر أيلول.

كانت معلولا قرية صغيرة لا ذكر لها إلى أن اكتشفها عالم اللغات الأوربي المبشر ج. فيريتي J.

Ferrette والمستشرق ا. سوشين A. Socin (انظر مولير ١٩٦٩ Müller) و ج. بريم J. Prym .

أشير إلى القرية الآرامية وسكانها باختصار في منتصف القرن التاسع عشر بين عدد من القرى الأخرى، ثم أتى وصف مفصل لها فيما بعد في دليل للرحلة في سورية كما يلي: "معلولا قرية كبيرة يسكنها مسيحيون فقط ويوجد بين سكانها بقية باقية تتحدث الآرامية السورية، ومع ذلك فإن هذه اللغة القديمة صائرة إلى الاندثار حسب بيديكير Baedeker ١٨٧٥)، وهذه اشارة من المؤلف إلى عنصرين مهمين بارزين في تلك القرية السورية فهي قرية مسيحية احتفظت باللغة "الآرامية الغربية الجديدة". فهي إذن، على عكس الآراء القديمة حولها، هي مركز مهم لاتزال اللغة الآرامية فيه حية يتكلمها أجيال معلولا حسب رأي عالم اللغة الألماني ف. أرنولد W. Arnold (١٩٩١ - ١٩٩٤). كما تؤكد بفافينباخ Pfaffenbach (١٩٩٤) بأن عدداً كبيراً من الأسر التي أتت إلى دمشق من معلولا لا تزال مرتبطة بعادات القرية أكثر من غيرهم من سكان المدن القرى الأخرى. ويرجح أن يكون ذلك عائداً إلى اللغة الآرامية التي لا يزال يتكلمها القادمون إلى المدينة من معلولا.

والقرية حالياً أصبحت مركزاً سياحياً عن طريق الدعاية التي تروج لها وزارة السياحة على أنها القرية التي يعرف الجميع في سورية وخارجها بأنها "القرية المتميزة التي لا يزال يتكلم أهلها لغة السيد المسيح". وهذان العنصران ينبغي عليهما رفع مكانة القرية لجعلها الأكثر شهرة في العالم، ويدعم ذلك المنظر الجميل لبيوتها السحرية المبنية من الطين المطلية باللون المزرق على سفح الجبل الجميل.

لقد انكشفت القرية لزورها في الداخل والخارج وأصبحت البرامج السياحية الدولية لا تخلو من ذكر معلولا، وإلى جانب تلك المعالم القديمة في القرية المتمثلة بالكنائس والأديرة وبيوت الطين، يطل الآن على القرية فندق سياحي حديث. وما يزعج السائح الأوروبي في منظر معلولا العام عند زيارته لمعلولا انتشار أبنية الاسمنت المسلح التي تفسد المنظر الطبيعي الأصلي الساحر. وهذا ما يدركه سكان القرية عندما يتحدثون عن موقع القرية الحالي متفاخرين بـ "أن معلولا ستصبح مدينة عامرة جميلة كمدينة دمشق".

تغيرت صورة معلولا بصورة خاصة خلال السنوات العشرين الأخيرة. فقد خرجت القرية من موضعها المحدود على السفح القائم وازداد اتساعها بامتدادها بحذاء الطرقات الاسفلتية الذاهبة إلى دمشق وإلى يبرود وبجوار المقابر المسيحية كما تسلقت أبنيتها السفوح الجبلية المحيطة. كما يلحظ المخطط العمراني الجديد لمعلولا اتساعاً لها كثيراً في الشرق والغرب تستثنى منه الواحة المروية. وفي القرية تنشط عمليات تجديد البيوت الطينية القديمة في مركز القرية باستعمال الاسمنت المسلح بالاضافة إلى ترميم للأبنية الحجرية العثمانية وللأبنية الخاصة والعامة للسكن والاصطياف. ذلك تطور مميز لمظهر قرية معلولا في حاضرها.

Literatur

Arnold, W.(1991a): Das Neuwestaramäische III. Volkskundliche Texte aus Ma lula. Wiesbaden.

Arnold, W.(1991b): Das Neuwestaramäische IV. Orale Literatur aus Ma lula. Wiesbaden.

Arnold, W.(1994): Aramäische Märchen. München.

Escher, A.(1993): Der Qalamun. Sozial- und wirtschaftsgeographische Skizze eines Berggebietes in der Arabischen Republik Syrien. In: Arnold, W. und P. Behnstedt: Arabisch-Aramäische Sprachbeziehungen im Qalamun (Syrien). Wiesbaden.

Himadeh, Sa id B. (1936/1973): Economic organization of Syria. Beirut/New York.

Müller, H.(1969): Ma lula vor hundert Jahren. Reisebriefe von Albert Socin aus dem Jahre 1869. Zeitschrift des deutschen Palästinavereins 85/1, S.1-23.

Papageorgiou, A.(1993): Die Bäcker aus Ma lula. Ein Beitrag zur Theorie der Clanwanderung im Vorderen Orient. Erlangen (Unveröffentl. Magisterarbeit)

Pfaffenbach, C.(1994): Frauen im Qalamun / Syrien. Erlangen.

Reich, S.(1937): Études sur les Villages Araméens de l´Anti-Liban. Beirut 1937.

Thoumin, R.(1936): Géographie Humaine de la Syrie Centrale. Tours.

Wirth, E.(1971): Syrien. Eine geographische Länderkunde. Darmstadt.